كتاب أسرار الوزارة

الباب الأول: في فضيلة الوزارة.

الباب الثاني: في خطر الوزارة.

الباب الثالث: فيمن يصلح للوزارة.

الباب الرابع: في الأسباب الموجبة للوزارة وهي سبعة.

الباب الخامس: في أوصاف الكمال.

الباب السادس: في الموانع للوزارة.

الباب السابع: في بقاء الدولة.

الباب الثامن: في الأسباب المزيلات للدول.

الباب التاسع: في تدبير العدو.

الباب العاشر: في نصيحة الوزراء.

الباب الحادي عشر: في مواعظ الحكماء.

الباب الثاني عشر: فيما يختص بعقوبته.

الباب الثالث عشر: في وظائف الوزارة.

الباب الرابع عشر: في مصانعة العمال.

الباب الأول
في فضيلة الوزارة

العرب تقول: الوزارة تلو الملك، بل الوزارة هي الإمارة، والتواضع في الرياسة إحدى شبائك السياسة، فالوزير بمنزلة الملك، فليكن أكرم الناس وأسخاهم، ويجب أن يكون هاديا مهديا متحريا محنكا، موصوفا بالدين والأمانة والعفة والديانة، مأمون العيب، نقي الجيب عن الرشوة والمصانعة، فالوزير سفير بين الأمراء والرعية، وإذا كذب السفير بطل التدبير، والرياسة صنو الإمارة. يقال: مثل السلطان كمثل الشمس، والرعية بمنزلة الثلج، ومثال الوزراء بمنزلة الجبال، فلولا الجبال لأتت الشمس على الثلج وأذابته في يوم واحد، لكنهم يدفعون البلايا عن الرعية ويصلحون أمورهم من حيث لا يشعرون. قال النبي ﷺ: «إذا أراد اللّه تعالى بأمير خيرا جعل له وزيرا صالحا إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه».

والوزارة على نوعين: وزارة ملك عاقل رزين كريم، خائف للّه تعالى مطيع، مائل إلى العدل حائد عن الجور. فوزارة هذا الملك غنيمة باردة، والنوع الآخر: وزارة ظالم غشوم، وجبار عنيد، فوزارته فساد الدين والدنيا وندم وخسارة. قال الحكماء: يجب أن يكون الوزير مثل المرآة التي لها وجهان فبوجه ينظر إلى الرعية [وبوجه ينظر إلى السلطان][1] واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) ما بين المعكوفتين زيادة على الأصل لتمام السياق.

الباب الثاني
في خطر الوزارة

قال النبي ﷺ : «من اقترب من أبواب السلطان افتتن»، مثل وزير السلطان كمثل راكب الفيل تهابه الناس وهو من نفسه أهيب، وقيل: أخوف ما يكون الوزراء إذا استقرت المملكة وهلك العدو، وكانت وزراء الفرس متى رأوا إقرار الملك واستبشار الملك هيجوا الفتن من الجوانب؛ ليشتغل قلب السلطان وتضطرب المملكة فلا يتفرغ لهم الملك، فالوزراء مرحومون والرؤساء وأيم اللّه معذورون[1]؛ لأن ألبابهم مشغولة بأشياء تكون الرعية بمعزل عنها، إني أرى صاحب السلطان في تعب، فإن قتل السلطان أحدا قيل بإشارته، وإن أطلقه قيل بمشاورته، وإن عدل قالوا من السلطان، وان ظلم قالوا من فعل الوزير، ورضا الناس غاية لا تدرك، فيصبح الوزير ونفسه في تعب، ولبه متوزع، وفكره بعيد، وهمه عظيم، ودينه متثلم، والخوف مطيف به، والأمن عازب عنه، والعافية موهومة والسلامة مظنونة، والسهر غالب عليه، والناس في أمورهم وهو في شغل شاغل، لا تنصفهم الرعية، يريدون منهم سيرة أبي بكر وعمر - رضي اللّه عنهما - ولا يسيرون فيهم سيرة رعية أبي بكر وعمر - رضي اللّه تعالى عنهما.

---

(١) وأيم الله، يجوز أن تكون همزتها همزة قطع كالمثبت وأن تكون همزة وصل، ويجوز (وإِمُ اللهِ)، و(مُنِ اللهِ)، و(وأمِ اللهِ).

الباب الثالث

فيمن يصلح للوزارة

اعلم أنه لا يصلح للوزارة ولا يستأهل للرياسة إلا امرؤ راض نفسه وهذبها، ومارس الأمور وجربها، وخالط العلماء واقتبس منهم، وعرف غوائل الأمور وغور الأشياء، وأنصف من نفسه وانتصف ولم يعتسف، وعلم أنه إنما استوزر لأجل الرعية خاصة وما أريدت الرعية له، كالراعي احتيج إليه لأجل الشياه، وليست الشياه مطلوبة لأجل الراعي، والطبيب مطلوب لأجل المريض، والمريض ليس بمطلوب لأجل الطبيب، فالوزير استؤجر بثوابه جنة الفردوس يحفظ الإسلام والمسلمين كالراعي استؤجر يحفظ الأغنام، فهذا الرئيس استؤجر لأجل الأنام، فالراعي إذا حفظ الشياه استحق الأجرة، وإن ضيعها يؤخذ بالغرامة ويحبس في سجن الملامة، كذلك الوزير والرئيس إذا حفظا المسلمين استحقا الأجرة ونالا السعادة، وإن ضيعا خسرا الدنيا والآخرة.

يقال له: يا راعي السوء أكلت السمين، وتركت الضعيف الهزيل، لأنتقمن منك.

فمن أوصاف الوزير أن يكون عالما باللّه تبارك وتعالى وبصفاته حتى يعرف الحق من الباطل، ومنها أن يهذب أخلاقه حتى يهذب الرعية، فمن لا يقدر على مصلحة نفسه كيف يصلح غيره؟! مثاله: السراج إذا لم يكن مضيئا في نفسه لا يضيء البيت. ومنها أن يقرأ سير الملوك والأمراء المتقدمة، ويطالع الكتب المصنفة فيها. ومنها أن يشاور في كل أمر حدث له ولا يستحي من المشاورة، فقد أمر اللّه تبارك وتعالى سيد الأنبياء وفخر العالمين بالمشاورة مع وجود الوحي ورؤية جبريل عليه السلام. ومنها أن يعلم الوزير أن الشريعة معيار المملكة وميزان السلطنة فيزن نفسه ورعيته بميزان الشريعة، فمن قتله الشرع

فهو شهيد[1] وخير الدنيا والآخرة في الشريعة، وسلامة الدنيا والآخرة في الاعتدال والاعتزال وفي العدل والإنصاف، وبالعدل قامت السماوات والأرض.

ومنها أن يكون الوزير عالي الهمة عظيم العطاء. ومعنى علو الهمة أن كل أمر يفعله ويتولاه فينهيه نهايته، وإن عفا عفا عن عظيم. وإن بطش بطش عن قوة. وإن حمى أحدا فيبذل النفس على هواه. وإن أعطى يعطي عظيما. ومنها أن يكون سنيا حسن المذهب لأن المبتدع مذموم بكل لسان مبغوض عند كل إنسان. ومنها أن يكون سخيا مفضالا. ومنها أن يكون شجاعا مقداما على الأمور.

ومنها أن يكون حسيبا نسيبا ليعظم في القلوب وقعه. ومنها أن يكون عفيفا متورعا، فإن المفسد آفة الدين والدنيا، ويجب أن يكون حليما مراعيا للخدم والحشم، ويكون له صاحب أخبار، ويكون له خبيئة صالحة مع اللّه سبحانه وتعالى ويحفظ مجلسه عن السخف والسخرية، ويقوي أمور الشرع، ويحضر مجالس العلماء ويتقرب إليهم، ويأمر أولاده بالأدب ودراسة العلم، ويجب عليه في قضية العقل وكمال الحال أن يجعل للعلم والمناظرة مجلسا مخصوصا، فيخص كل إمام بما يستحقه، ويميز في العطاء، وتكون محبته لمن أحسن إليه أكثر من محبته له؛ لأن لذته بها لذة فاعلية ولذة الآخذ لذة انفعالية.

ومنها أن يحضر العلماء والقراء لختم القرآن في داره، ويدرسون سنة النبي ﷺ ويناظرون بين يديه، ويجزل العطاء للعلماء لإشاعة ذكره، ويجب عليه أن يحدث آثارا يذكر بها إلى يوم القيامة مثل المدارس والرباطات للصوفية، ويكون كلامه فصيحا بهيا جهيرا، ودائما يوفر على الخيرات، ويجب عليه أن ينزل الناس مراتبهم، فيكرم أهل الكرامة، فإن النبي ﷺ بسط رداءه للكافر، وقال: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»، وقيل: من لم يحترم الإخوان تذهب مروءته وحرمته،

---

(١) أي: وإن ظن أنه ينال منه بتطبيق الشرع فهو شهيد، وقد كان سيدنا عمر ﷺ شهيدًا، وقد كان أولى الناس بتطبيق شرع النبي ﷺ والاقتضاء بسيرة صاحبه سيدنا أبي بكر ﷺ.

ومن لم يحترم الوزير والرئيس تذهب حرمة دنياه، ومن لم يحترم العلماء تذهب حرمة آخرته، وروي عن عائشة - رضي اللّه عنها - أنه جاءها سائل فأعطته كِسْرَةً، وجاءها رجل حسن الهيئة، فأمرت له بِخِوَانٍ[1] ووسادة، فقيل لها في ذلك، فقالت: إن رسول اللّه ﷺ أمرنا أن ننزل الناس منازلهم. واللّه أعلم بالصواب، وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الباب الرابع
في الأسباب الموجبة للوزارة

الأول: السخاء، والثاني: النجدة، والثالث: الحلم، والرابع: الصبر، والخامس: التواضع، والسادس: الشجاعة، والسابع: العفاف. وقد قالت الحكماء: كل وزير ورئيس اجتمع فيه سبع خصال فوزارته بالاستحقاق، ومن تعرى عن هذه الأوصاف فولايته بالاتفاق، فدولة العاقل من الواجبات، ودولة الجاهل من الممكنات، وتلك الأوصاف: حفظ الدين والمذهب عن التبديل. والثاني: حفظ البيضة وحدود الإسلام. والثالث: حفظ عمارة البلدان. والرابع: مقامات المظالم. والخامس: تقرير الأموال لحسن الجباية. والسادس: إقامة الحدود. والسابع: اختبار العمال، فمن فعل ذلك فقد استأهل لها حق للّه سبحانه وتعالى، وكانت الجاهلية لا يسودون أحدا إلا من تكاملت فيه هذه الأوصاف المتقدمة، فمنها السخاء فمن لا سخاء له لا ذكر له ولا ثناء، ولا حمد ولا دعاء، ولا تكاد تثبت مملكته.

قال الإمام أبو حنيفة ﷺ: كل ملك لا سخاء له فبشره بزوال ملكه، ولقد أصاب لَعَمْرُ اللّه في قياسه، فإذا لم يَجُدْ لا يميل إليه أحد ويتفرق عنه عسكره، ويطمع فيه عدوه، ومنها النجدة والرأي والقوة والكفاية، والحلم؛ لئلا يغضب في كل شيء فيندم، والصبر، فإنه إذا كان عجولا يضيع الأمور، والتواضع؛ فإن

---

(١) الخِوَان: ما يؤكل عليه.

المتكبر مبغوض عند الناس، والشجاعة؛ فإن الجبان والخَوَّار لا تدبير له، والعفاف؛ فإن المفسد المتهتك لا وقار له. أما حفظ الدين فهو الأصل والصراط المستقيم، والملك والبقاء والحياة والسلطنة والوزارة كل ذلك لأجل الدين، فيه النجاة وإليه المرجع والمآب. وحفظ البيضة وهو حدود الإسلام. والثالث: عمارة البلدان. والرابع: مقامات المظالم ينصف المظلوم ويمنع الظلوم. والخامس: تقرير الأموال لحسن الجباية. والسادس: إقامة الحدود. والسابع: اختبار العمال وهو تفويض الأمور إلى أربابها، فالخوار يعجز عن تمشية الأمور، والعاجز يعاقب على كل شيء[1]، فإذا لم يكن صبورا لا يدرك الأمور، والمتكبر ينفر عنه الناس، والعاجز يسقط وقاره.

واعلم أن الكلام ذكر وأنثى، وحيثما اجتمع الزوجان فلا بد من النكاح، ينبغي أن يكون الوزير سمحا بالحقوق لا يطالب بها غيره، ويوفي ما يجب لغيره عليه، فإن مرض ولم يعد أو قدم من سفر فلم يزر أو شفع فلم يجب أو أحسن فلم يشكر أو خطب فلم يزوج، وما أشبه ذلك؛ فليتساهل في هذا ولا يغضب، فإنه لم يسود إلا ليغفر الزلة ويستر الخلة ويراعي الحلة إنما سميت هاتنا لتهنى. قال أبو الأسود الدؤلي لبعض من يساره من الوزراء وهو يمتنع من مساررته لِبَخَرِه[2]: لا يستحق السيادة إلا من صبر على مساررة الشيوخ البُخْر. وقال بزرجمهر: لا يصلح لقيادة الجيوش وسد الثغور وتدبير المملكة إلا رجل تكاملت فيه خلال أربع وثلاث وثنتان وواحدة؛ أما الأربع: فحزم يتصون به عند موارد الأمور ومصادرتها، وحلم يحجبه عن التهور في المشكلات إلا مع إمكان فرصتها، وشجاعة لا تقوم الأعداء بمكانها، وجود يهون جلائل الأموال عند

---

(١) لأنه لا حيلة له ولا ذكاء ولا عقل ولا تدبير في الأمور فيصب جام غضبه على المخطئ دون معالجة للأمور بفطنة وحزم.

(٢) البَخَر: النتن في الفم وغيره. "القاموس المحيط".

سؤالها؛ وأما الثلاث: فسرعة مكافأة الإحسان، وثقل الوطأة على أهـــل الزيـــغ والعدوان، والاستعداد للحوادث؛ وأما الاثنتان: فتخفيف الحجاب علـــى الرعيـــة، والحكم بين القوي والضعيف بالسوية؛ وأما الواحدة: فالتيقظ في الأمور مع ترك تأخير مهم اليوم إلى غد. وقال زياد: كمال السلطان في ثلاثة أشياء: شدة فـــي غير إمساك، ولين في غير إهمال والسخاء، وأحق النـــاس بالمملكـــة أنفعهـــم للرعية. وقال ابن عباس - رضي اللّه عنهما - إن الأرض لتزين فـــي أعـــين الناس إذا كان عليها أمير عادل وإن البلدة لتقبح في أعين الناس إذا كان عليها أمير جائر، واللّه أعلم بالصواب.

الباب الخامس
في أوصاف الكمال

اعلم أن أوصاف الكمال في الوزير والرئيس والسلطان ثلاثة: الحكمة، والشجاعة والعدالة، وأضدادها ثلاثة: السفه والجبن والشره والجور، فالعدل هو الفضائل كلها، والجور هو الرذائل كلها، فالعدل يكون في اكتساب المال والحرية في إنفاقه، فإن الحر لا يكرم المال لذاته ولا يجمعه لمحبته، بل ليصرفه في الوجوه التي يكتسب بها الثناء والمحمدة[١]، ولهذا لا يكون الحر الكريم كثير المال لأنه منفاق ولا فقير ولا كسوب. وقد قال الإسكندر: إن سيرة السعداء ثلاثة أشياء: الأول: معرفة الحق، والثاني: فعل الخير، والثالث: عدم الآلام التي لا تنبغي؛ لأن الكامل يعرف كل شيء بحقيقته وخاصية وجوده، ويفعل الخير لوجوده بذاته ويتوخاه بجوهره لأنه خير فقط لا لغرض، ويختار العفة والراحة واستعمال الأخلاق الجميلة في طلب المعاش، ومعاشرة الناس تنفي الأخلاق التي لا تنبغي عن نفسه ليهنأ عيشه ويطيب قلبه أبدًا، ويحب الجميل لأنه جميل فحسب، ويترك الحقد والحسد واللجاج، وترك الطمع فيما لا يمكنه الإقدام عليه[٢]، ويلزم الصمت والعدل في القول والفعل جميعا، وإنجاز المواعيد، وقلة المبالاة بالفقر، والصبر الجميل[٣] والاشتغال بالمهم لقصر الزمان، والتواضع والقناعة وإكرام النفس أولا ثم إكرام غيره، وترك التفوه بالقبيح وحسن اللقاء وطلاقة الوجه بكل حال، وترك التجني والقيام عن مجلس الخصومات[٤]، وطلب المعاش بقدر ما لا يطغى، فهذه جملة أوصاف الكمال، واللّه تعالى أعلم.

---

(١) يعني: في الآخرة، فضلاً عن أنه سينال هذا قطعًا في الدنيا.

(٢) بمعنى قول بعضهم:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

(٣) في الأصل: (والموت الجميل)، وصوابه المثبت.

الباب السادس

في الموانع للوزارة

وهي سبعة: البخل، والجبن، والكبر، والضعف، والظلم، وكثرة الخطأ في الرأي، والطيش، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فلا يصلح للسيادة والوزارة أصلا، بل تكون سيادته اتفاقية من جهة السفه أو بالمال؛ لأن المقصود من الوزارة والرياسة تهذيب البلاد وترتيب أهاليها، وحملها على طاعة اللّه تعالى ورسوله، وإحياء السنة، وإماتة البدعة، وانتشار الصيت، وبقاء الذكر الجميل، فإذا كان ذا طيش وفسق فقد ضيع نفسه، فكيف يحفظ غيره؟! ومن خان نفسه فكيف ينصح غيره؟! وإذا كان جبانا فكيف يهجم على الأمور؟! وإذا كان متكبرا فكيف يعاشر الناس؟! وكيف ينزلهم منازلهم؟! وإذا كان بخيلا؛ فيقتل الناس بالظلم ويسومهم بالحيف، وإذا لم يكن عفيفا؛ فيتبع عورات الناس ويطمع في المُخَدَّرات[1] وأولاد الناس هذا ومثاله مما لا يخفي عليك، واللّه تعالى أعلم بالصواب.

الباب السابع

في بقاء الدولة

اعلم أن الأسباب الموجبة لبقاء الدولة أشياء منها: نصرة الدين، وتقوية الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ ﴾ [محمد: ٧]، ومنها: نصرة المظلوم، والعدل، والشفقة على المسلمين؛ لقوله تبارك وتعالى:

---

(١) المُخَدَّرات: جمع (مُخَدَّرة)، وهي البنت التي تلزم الخِدْر، وهو ستر يمد للجارية في ناحية البيت. "القاموس المحيط".

«إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا عبادي»، وإطعام الطعام، واتخاذ الخِوَان[١]، وتسهيل الحِجَاب[٢]، فإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وقال نبي اللّه موسى صلوات اللّه على نبينا وعليه: يا رب إنك أمهلت فرعون أربعمائة سنة، وهو يقول: أنا ربكم الأعلى، ويكذب بآياتك، ويجحد رسلك، فأوحى اللّه إليه: إنه كان يعمر بلادي، ويُؤمِّن عبادي، وفي رواية: كان حسن الخلق، سهل الحِجَاب فأحببت أن أكافئه.

السخاء شفيع منجح لبقاء الدولة، والبخل سبب مؤذن بزوالها، فبالسخاء تملك أزمة القلوب، ومنها أن يُحْدِثَ لكل ذنب توبة، ولكل سيئة حسنة، وهذا مقتبس من القرآن العظيم ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [هود: ٣] . ومنها أن يتصدق كل يوم بما يقدر عليه فالصدقة شيء عجيب. ومنها أن يبطل القواعد المحدثة والرسوم المفتنة ويبسط العدل والإنصاف. ومنها أن يرضي اللّه تبارك وتعالى بسخط المخلوق، ولا يرضي المخلوق بسخط الخالق جل وعلا، فإنها عمدة العقلاء ومنية الألباء، ويتعزز بالتقوى دون الأماني وملازمة الهوى، فمن لم تعزه التقوى فلا عز له. ومنها أن يعمم بالإحسان فإن الإنسان عبد الإحسان، وإذا عم العدل وأفاض الفضل أحبته القلوب وأطاعته النفوس؛ فيأمن مكر الأعداء. ومنها أن يكون له صاحب خير ينهى إليه أخبار الممالك. ومنها أن يولي الأمور إلى أربابها وأهاليها، فقد سئل حكيم الساسانية عن سبب زوال دولتهم؟ فقال: لأنا فوضنا الأمور إلى غير أهلها، وغفلنا عن الرعية حتى أكل بعضهم بعضا، ولم يكن لنا صاحب خير ينهي إلينا؛ فاجترأ علينا العدو. ومنها أن يتبرك بدعاء الصالحين فكم من دولة أزالتها أدعية الناس، وكم من مملكة وَطَّدَتْهَا.

---

(١)أي: وضع موائد الطعام للناس والفقراء.

(٢) أي: من يدخلون له الناس للقائه لقضاء حوائجهم.

وقرأت في «صوان الحكم»[١] - وهو كتاب نفيس - إن اجتماع الدعوات بصفاء النيات، وخلوص الطَوِيَّات يحل ما عقدته الأفلاك، ومن لم يؤمن بهذا فليستأنف الإيمان. ومنها أن يستنجد بالسلاح والكراع والرجال والأموال، فإن ذلك مما يرهب العدو ويقمع الحاسد. قال الله عز وجل: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ومنها أن لا يتخذ الضياع والقرى ولا يشتغل بالحراثة والتجارة، فإن ذلك مما يطمع فيه العدو. ومنها أن يوظف على الناس ختم القرآن في داره كل يوم فإن لم يتفرغ فكل أسبوع، ففي الخبر: «ما خربت دار يقرأ فيها القرآن، وما عُمِّرَ بيت يكون فيه الزنا». ومنها أن يجالس العلماء ويصاحب الفقهاء فإنه بركة وقوة في الدين والملك، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم، فإن الرحمة تنزل عليهم والملائكة تحف بهم فتصيبه الرحمة. فإن كان لله تبارك وتعالى في الناس أصفياء فهم هم، ومن جلس عند العطار فلا يحرم من نفحات المسك، ومحبة العلماء تسوق إلى الخاتمة السعيدة والثناء المخلد، والله تعالى أعلم.

الباب الثامن

في الأسباب المزيلات للدول

وهي التهور، والقِحَة، والانهماك في الشهوات، وقلة المبالاة بالعدو، وتعاطي الجور، والظلم آفة لا تخطئ، فالمُلْك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم، ومصحف المجد يشهد بهذا، فإن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾[النمل: ٥٢]، وأول ما كتب في التوراة هذه الكلمة: من يظلم يخرب بيته، والبخل، والكذب، والإصرار على شرب الخمر

---

(١) صوان الحكم: كتاب في طبقات الحكماء للقاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد القرطبي، توفي سنة (٢٥٠)هـ. "كشف الظنون" - لحاجي خليفة - ج٢، ص ١٠٨٣.

والفساد، وإهمال أمر الرعية، قيل: السلطان يلعب والوزير يطرب والدنيا تخرب. قال أستاذ الإسكندر له: اعلم أن سلطانك على أجساد الرعية، ولا سلطان لك على القلوب، فاملك القلوب تَعنُّ لك الوجوه، واعلم أن علامات زوال ملككم إذا أطعتم هواكم، واستعملتم شراركم واستثقلتم خياركم، وزهدتم في العلم، ونقضتم العهد، وتهاونتم بأمور رعاياكم واستعملتم الكبر والزهو.

واعلم أن أساطين الملك وأعمدة السلطان أربعة أشياء، أولها: العدل في رعاياهم. والثاني: عمارة بلادهم. والثالث: ضبط ملكهم من أعدائهم. والرابع: منع قويهم عن ضعيفهم، وليس للملك أن يبخل لأن البخل لقاح الشنآن[١]، ولا يغضب لأن الغضب لقاح الندامة، ولا يحسد لأن الحسد يقلل عدد الرجال[٢].

الباب التاسع

في تدبير العدو

اعلم - وقاك اللّه تعالى شر الأعداء - أن العداوة للوزراء والرؤساء تنبعث من شيئين: الأول: إكرام السفلة الأنذال. الثاني: امتهان أهل الشرف والحسب، فالوزير إذا استعمل السفلة ورفع أقدارهم وسلطهم على رقاب الناس يأمرون وينهون، فيجرأ عليه أهل الشرف فيعتقدون الإساءة من الملك؛ لأن السفل لا يعرف قدر نفسه ولا يحفظ الأدب، فيجرح القلوب ويؤلم الأجساد، ويدخر لنفسه ولمواليه الإحَنَ والأحقاد، فإذا رأى ذلك أهل الشرف يعتقدون الإساءة والبغضاء، وإن كانوا أولياء فيصيرون أعداء، فتتحرك الأنف الأبية والدواعي الغضبية فينسلخون في عداوة الوزير من جلد البشرية والإنسانية، فيصبحون

---

(١) الشنآن: البغض.

(٢) يعني: لا يصير من كُمَّل الرجال بل من هُمَّل الرجال الذين لا يساوون النساء في أخلاقهن بل قد تكون الواحدة منهن خير من الجمع الغفير منهم.

بعداوة السبعية، فقضية الحرية تقتضي أن يكرم أهل الشرف ومراعاة ذوي البيوتات القديمة، والمحافظة على شؤونهم، ويزجر السفلة وينهاهم ويردع غوائلهم ليأمن مكايدهم.

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا[1]

والسبب الثاني: التظاهر بالظلم والجور، فإن ذلك مثال العداوة، فالوزير الكافي والرئيس الكامل لا يضع الحديدة موضع الإبرة، ويصلح باللطف ما لا يصلحه غيره بالعنف، فالحر عبد البر، والإنسان صنيعة الإحسان. قال سيد القراء أبو عمرو بن العلاء: عجبت لمن يشتري المماليك بأمواله فيعتقهم كيف لا يشتري الأحرار بمعروفه فيسترقهم؟! فإن كان له عدو في البلد ينازعه في ولايته فليخرجه من البلد، فإن الصواب في ذلك.

فإن كان عدوا مكاتما خارج ولايته فقمعه من أربعة أوجه: الأحوط له أن يسترقه بالمعروف والإحسان واللطف والكرم، فإن لم ينخدع بهذا فبالصفح والمهادنة، فإن لم ينخدع بهذا، فبالتحصن بالقلاع والخنادق والمواضع الحصينة، فإن لم يتمكن من ذلك فأسوأ التدبير المجاهرة بالحرب؛ وفي ذلك إغرار وأخطار؛ إذ الحرب سجال وللسلامة مجال، وهذا إذا أحس من قومه مقاومته، أما إذا علم ضعف قومه وشوكة عدوه، فإياه وإياه فلا يبدأه بالحرب إلا إذا رأى ضعفه فيعاجله قبل أن يستجيش الجموع، فإن كان له شوكة فيدع العدو حتى يطأ البلاد والديار فيكون غريبا في الموضع، والغريب أعمى لا يهتدي إلى عواقب الأمور والحيلة أنفع الوسيلة، وليحفظ الملك والوزير واحدة وأي واحدة، وهي: كتمان السر عن العدو، والجهد في معرفة سر العدو، ولا يحارب بنفسه، وأعظم الأشياء في الحرب التورية يُرِى شيئا ويفعل شيئا آخر، يقصد صَوْبا ويورِّي طريقا آخر،

---

(١) البيت من بحر الطويل.

ومن أحدث أثرا من عسكره فيكرمه، ومن نفق فرسه أعطاه عوضه، وهذا كله إنما يستقيم بنية الخير، ووعد الجميل، وإضمار فعل الخيرات، والاستعانة بعون اللّه سبحانه وتعالى.

الباب العاشر

في نصيحة الوزراء

اعلم أن الملك والوزارة يرادان للذكر الجميل والثناء الحسن، والدنيا أحدوثة فكن حديثا حسنا لمن وعى، وكل ما هو فوق التراب تراب. قال المأمون: يطلب الملك للذكر الجميل، وإحداث الفعل الصالح، واصطناع أهل الخير، أما جمع المال والحرص على الذخائر فمن دأب السوقة. وقال أيضا في بعض وصاياه: إنما امتازت الملوك عن الرعية بقدر الخير والإحسان، فالرعية تريد أن تفعل الخير ولا تقدر والملوك إذا أرادوا أن يفعلوا فعلوا، فمن لم يفعل فقد أخبر عن لؤم نفسه فأيام الإمكان غنيمة، والقدرة على الخير فرصة، ولم يكن في الوجود أحسن من فعل الجميل، وأنشد عن الكبار:

اختم وطينك رطبًا للختام فكم ... قد خمر الطين أقوام وما ختموا

ولوا فما عدلوا أيام دولتهم ... حتى إذا عزلوا ذلوا فما رحموا[1]

فليكن الوزير والملك عالي الهمة، فإن خساسة الهمة من دأب السوقة، ولا يتكل على القلاع والمال فإنه مسلوب منها عن قريب، فليطلب شيئا لا يسلب عنه لدى الموت وهو العمل الصالح، ويحفظ الدين حتى يفلح، وليكن جوادا مفضالا ليكون مشهورا، وليجعل دنياه فداء لآخرته، ولا يجعل آخرته فداء لدنياه، وليعتبر بالملوك السالفة والوزراء المتقدمة كأنهم لاندراس الدهر ما خلقوا:

---

(١) البيتان من بحر البسيط، وفي الأصل (رطب) بدل (رطبًا)، والصحيح المثبت.

تفانوا جميعا فلا مخبر ... وماتوا جميعا ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى ... فتمحي محاسن تلك الصور
فيا سائلي عن أناس مضوا ... أما لك فيما ترى معتبر[١]

ولنذكر وصاية بهلول لهارون الرشيد: هب أن مملكة الدنيا تساق إليك أليس آخر ذلك كله موت؟ فآخر ما ترى القبر واللحد والثرى، وإياك والظلم فإن الملك إذا اشتهر بالظلم بغضته الرعية، وإذا بغضته الرعية خالفته، والمخالفة سبب المحاربة، فالفتنة نجوى ثم شكوى ثم بلوى، والملك إذا اشتهر بالعدل آنسته القلوب، وأحبته الرعية، فإذا أحبته أطاعته وخدمته، والطاعة توجب المؤانسة، والمؤانسة توجب بذل الروح في هواه، ويصير العدو مقموعا.

وإياك والبخل فإن شر خصال الملوك البخل، فالملك إذا كان بخيلا يطمع في أموال الرعية، ويدنس عرض نفسه بالأشياء الخسيسة، فيظهر خسة نفسه فتسقط حشمته، ويبطل وقاره في أعين الناس، فليجالس الأكابر والعلماء ليعظم وقعه في القلوب؛ لأنه علَمٌ بين الرعية وتمتد إليه العيون، فإن صلح صلحت رعيته، وإن فسد فسدت رعيته واعلم أن كمال الملك أن يخافه أهل الجرائم، ويأمن منه أهل السلامة، وإياك أن تستحقر العدو وإن فسدت رعيته، وإياك أن تستحقر العدو وتستصغر الغائب وإن كان حقيرا في نفسه، فإن الأمور تبدو صغيرة ثم تكبر، والغيث ينزل قطرة قطرة، ثم تكون منه السيول، ولا تكونن أسير الشهوة، فإن ذلك من خاصة الخنازير والسباع، ولا يخالف قوله وعده فيصبح كذابا، والكذاب لا يصلح أن يكون ملكا واعلم أن الدنيا دول يوم لك ويوم عليك.

فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نُساء ويوم نُسَر[٢]

---

(١) الأبيات من بحر المتقارب.
(٢) البيت من بحر المتقارب.

فلا تقصد أهل البيوتات القديمة فإنه مذموم، وإياك والبغي فإن البغي مصرعه وخيم، ولا تفتخر بالمملكة فإن الملك لا بقاء له.

ويكرم شجعان عسكره ويضاعف في عطاياهم فإنهم جناح المملكة، وإذا ظفر بالعدو فليعف عنه فإن العفو من شيم الكرام، ويتعاهد أجناد عسكره فإنهم جوارحه وأركان مملكته، وقوة الوزير بالعسكر، ويواسي القروح قبل أن يحتاج إلى الكي، وإذا أظهر العداوة فليثبت عليها ثبات الليث على عداوته. ويعلم أنه إذا صلح خواص مملكته يصلح عوامها، وإذا فسد الخواص يفسد العوام. واعلم يا علم الوزراء وطراز الرؤساء - أدام اللّه لك المجد والبقاء ما بقيت الأرض والسماء - أن القاضي قابل على الذم والثناء، فإن عدل فيدوم الثناء للملك، وإن جار فلا يُغدَم ذامًّا.

فصل: ومن منة اللّه عز وجل على هذا الصدر الكبير سيد الوزراء أن جعل له قاضيا هو فرد العالم في صورة عالم، ملك في صورة إنسان يزين القضاء بمكانه ويشرف الدَّسْت بزمانه[1]، منزلته من الدين منزلة الصديق من الإسلام، فالحمد للّه الذي قصر الفضائل عليه حتى أشير بالأصابع إليه، وينبغي للوزير الممكن والرئيس المطاع أن يتحنن ويترحم على البريء، ويغضب على الخائن من اللصوص والقطاع، فإن الترحم على هؤلاء من طبع النسوان، وقد قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢]، ولا تهتك أستار أهل الأقدار، فإن عثر صاحب كرم وشرف فليأخذ بيده ليكون قاضيا لحق آبائه، أيها الماجد ابن الماجد كفاك شرفا أن يميل إليك أبناء الملوك، وأهل الشرف يطأون بساطك ويقصدون حضرتك، واللّه أعلم، وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) الدَّسْت، والدَّشْت: صدر البيت، معرَّب. "القاموس المحيط".

الباب الحادي عشر
في مواعظ الحكماء

قال الإسكندر: أي ملك يتطاول على عسكره ورعيته فلا يأمن من الهلاك في أيديهم، فإن من لا يتدارك الأمور الجزئية فإذا باضت وَفَرَّخَتْ لا يمكنه تداركها، وأي ملك لا يحترم العلماء يكون في أصله خطأ، وأي ملك يلاحي ويماري عسكره لا يفلح أبدا، وأي ملك يتعود رسوم السوقة من البيع والشراء والنقد والوزن فلا يفلح أبدا، وأي ملك يصرّ على رأيه الخطأ فقد سعى في هلاك نفسه، وأي ملك رسم القواعد المحدثة والرسوم الباطلة؛ فاعلم أنه يموت ولا تموت ذنوبه، وأي ملك لا يكون له كرم؛ فاعلم أنه لا يصلح للملك، وأي ملك انهمك في الخمر والزمر؛ فقد ظفر عليه العدو من حيث لا يشعر، وأي ملك اشتهر بالكرم والسخاء فأبشر بطول سلامته، واعلم أن الإنسان يحتاج إلى الأصدقاء لأن الاثنين إذا اجتمعا وتعاونا كانا أقوى على الظلم والعمل.

ومن تمام السعادة اقتناء الأصدقاء، ومن المحال أن يجتاز الإنسان جميع الخيرات مع الوحدة، فإنه يحتاج إلى من يضع معروفه عنده، ولولا الفقراء بقي الأغنياء ملطخين بالأوضار[1]، فأيام الإنسان لذيذة بالأصدقاء والأخيار الأفاضل والإنسان يحتاج إلى الصديق عند حسن الحال وعند سوء الحال، فعند حسن الحال يحتاج إليه للمؤانسة، وعند سوء الحال يحتاج إليه للمعاونة، وقيل للإسكندر: كن متيقظا فإن علل الصدور كثيرة، واعلم يا إسكندر أن مصيرك إلى التراب وأنت غدا مأكول التراب، فلا تتكبر على عباد الله تعالى، ولا تأخذ أحدا، فإن الشقي من لا يتذكر عاقبته، لا تكن حليما بالقول فقط بل بالقول والفعل جميعا، يا إسكندر اذكر اليوم الذي يهتف بك داعي الموت، واعدد زادا في كل أيامك، فإنك لا تدري متى الرحيل، يا إسكندر الرئاسة تراد للذكر فإن طلبها من جهتها ساقته إلى طلبه،

---

(١) الأوضار: وسخ الدَّسم واللبن، أو غسالة السقاء والقصعة ونحوهما. "القاموس المحيط".

الصدق أصل الممدوحات والكذب أصل المذمومات، يا إسكندر البخل ينتج حب الدنيا، ويسوق إلى الندامة والطمع والخيانة، يا إسكندر لا تمل إلى الغضب فإنه من أخلاق السباع، يا إسكندر كم عساك تعيش، فتيقظ، يا إسكندر من مات محمودا كان أحسن حالا ممن عاش مذموما، يا إسكندر أنت موضع مدحي إن عدلت وإن جرت قصر لساني في ذكر مدحك، يا إسكندر اطلب الغنى الذي لا يفنى، والحياة التي لا تتغير، والملك الذي لا يزول، والبقاء الذي لا يضمحل، يا إسكندر لا فخر فيما يزول ولا غنى فيما لا يثبت، ولا تكلب على الدنيا فإنك قليل البقاء فيها، يا إسكندر من أسرف في الشراب فهو من السفلة، يا إسكندر عند الغضب تعرف الرجال، يا إسكندر اعلم أن الدولة إذا أقبلت إلى الملك فتخدم شهوته عقله، وإذا أدبرت الدولة فيخدم عقل الملك شهوته، يا إسكندر من علامة الدولة اقتناء المناقب واصطناع الأحرار، وإذا أدبرت فاصطناع السفلة، يا إسكندر من لم يصلح نفسه كيف يصلح غيره، يا إسكندر السُكْر على الملك حرام لأنه حارس المملكة فقبيح أن يحتاج الحارس إلى حارس، يا إسكندر إن الظالم يبقى ما حفظ العمارة وحدود الشريعة، فإذا تجاوز عنهما فقد حان هلاكه، يا إسكندر الأخيار يتقربون إلى الملك بالمناصحة والدعاء إلى الخير، والأشرار يتقربون إليه بمساوئ الناس والطعن في أعراضهم، وإن الساعي بمنزلة الحريق المشعل، يا إسكندر اعلم أن عيب عمالك وأمرائك منسوب إليك ولك، كل ملك يستأصل أشراف رعيته ويبقى السفل بمنزلة رجل يقلع الأشجار المثمرة ويغرس عروق العوسج، يا إسكندر اعلم أن الأيام تهتك الأستار، وتغير اللباس، وتحوج الناس إلى النار، وتخلق الجديد، وتدرس الجميل وتأتي على كل شيء إلا على الذكر الجميل والمحبة القديمة، وثناء فائح ودعاء صالح، وعدل شائع، فإنه يبقى مدى الأيام، تزود من الذكر الجميل فإنه سيبقى، وما فوق التراب تراب.

الباب الثاني عشر

فيما يختص بعقوبته

اعلم يا عَلَمَ الوزراء وطراز الرؤساء، وصاحب العزة القعساء، والدولة الشماء - أدام الله أيامك ما رفعت يد بالدعاء - أن خطر الوزارة عظيم وخمارها صعب شديد، فإن السلطان مسئول عما يفعله هو بنفسه وعما يفعله نوابه، والوزير غدا مسئول عن عدل نفسه، وعدل نوابه، وعدل ما ملكت يمينه إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وبالجملة هو مأخوذ بفعل الغير. قال الله عز وجل: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[النحل: ٢٥] وقد قال جهابذة العلماء في تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، يعني: لا تزر وازرة طوعا واختيارا، ولكن تحمل عليه قهرا واقتسارا، فإذا ظلم نوابه فهو مأخوذ بظلمهم، لأنه ولاهم على رقاب العباد، وعلم أنهم يظلمون الناس بغير الحق فلم يمنعهم، فكأنه رضي بفعلهم، والرضا بالظلم ظلم، والرضا بالفسق فسق، والرضا بالكفر كفر، فمن تغافل وسكت بعد العلم بذلك فقد هلك من حيث لا يشعر، وإن كان له حسنات وكان له خصوم تؤخذ منه، ومن لم يكن له حسنة فيطرح عليه أثقال الخصوم وذنوب القوم، فيا معشر الوزراء الاعتبار الاعتبار. ويا أعلام الرياسة الاعتذار الاعتذار، وعن سر هذا ألقى عمر درَّته، وقال: لا أريد الخلافة، من يأخذها بما فيها؟ وعن هذا قال رسول الله ﷺ : «ما من وال إلا ويود يوم القيامة أن لو أعطى قوتا من الدنيا».

فمتى ظلم النواب والعمال في الولاية، وعلم به الوزير فلم يمنعهم، فهو معاقب يوم القيامة ومسئول عنه، فيا عجبا لمن يدعي الفهم وهو أعمى يحرق نفسه لأجل الغير، ويسوّد صحيفته لأجل غيره، ويبيع آخرته بدنياه، إن كان في هذا عقل فما في عالم الله تعالى جهل، فإذا قطع الطريق في حدود ولايته فهو

مسئول عنه، فإن قال: كنت عاجزا، فيقال: هلا سلمتها إلى قوي قادر الآن، وقد عصيت قبل، وإن رتع النائب فيما لا يحل فهو مسئول، وإن ضاع الفقراء في ولايته فهو معاقب بذلك؛ إذ يجب عليه أن يوصل إليهم حقوقهم، وإن خرب مسجد أو انشرم رباط فيجب عليه أن يعمره، وإن ظلم عبيده وخدمه أو تركوا الصلاة فيجب عليه أن يأمرهم بالصلاة وترك الظلم، فإنهم محبوسون تحت يده، وإن تغافل وأبى فقد باء بغضب من اللّه تعالى، ولا يحزنك دم هراقه أهله، وإن تعطل في ولايته حد من حدود اللّه تبارك وتعالى أو زيد فهو المطالب به غدا، ويتحاشى الوزير من شيء هو قاصمة الظهر، وهو: مصادرة الناس وإراقة دمائهم باسم المصلحة للمملكة، فإن الولاة يقهرون ويضيعون حكم المواريث، ويرفعون آية من كتاب اللّه تعالى، وهي قوله عز وجل: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾[النساء: ١١]، ويسمونها مال المصالح، وهو مال المفاسد.

وإياك من شيء أحدثه الظلمة الأجلاف فإنه مؤذن بزوال الدين والدنيا، وهو: تغيير موجبات الشرع، ووضع مراسيم وأحكام من عند أنفسهم، مثاله: الشرع أمر بقطع يد السارق والاقتصاص من القاتل، وحد شارب الخمر والقاذف والزاني وقاطع الطريق، وزجر النائحة، وهجران المنجم، فهؤلاء غيروا أوضاع الشرع وعقدوا على كبائر الذنوب ضمانا وقبالة، فإن أوتوا بسارق يأخذون منه قليلا ويخلونه وشأنه، ثم هو يستوثق بهم فيتخذها حرفة وصناعة، وإن رأوا شارب خمر لا يحدونه وإن بالغوا في الحد كان ذلك دَانِقًا[1] وإن قبضوا على قاتل يأخذون منه دنانير ثم يعفون عنه مع سخط الأولياء، ويطالبون الجيران بالجناية والمصادرة، وعقدوا على المأجور وبيت القِمَار في كل بلدة سجلا وقبالة ويشاركون الجباة في بعض جرائمهم، ولقد رأيت سارقا قبض عليه فحملوه إلى

(١) دانقًا: أي: سدس درهم.

السجن فحبس ساعة ثم خلي سبيله، ثم قيل: إن السارق شريك الوالي فيما يتعاطاه يقسم معه كلما يسرق، فقلت: يا للمسلمين! هذا إن كان الحق، فأين الباطل؟! وإن كان هو إسلاما فأين الكفر؟! يا هذا أقصر، فما بقي من الإسلام إلا اسمه، ثم أقول: إن يكن اعتقد استحلال ذلك فقد لزمه الكفر، ومن لم يعتقد فهو به فاسق لا يجب التسليم عليه، ويعلم أن كل مرسوم مُحْدَث في بلده هو مأخوذ به، ويلحقه الإثم والحرج في الحياة وبعد الممات لأنه يمكنه تغييره إذ هو تحت ولايته، ولم يكن مبتدعا في ولايته حتى تستفيض بدعته - فنعوذ بالله من هذه الصفات - بل هذا كفر صريح يبوء بإثمه، بل المفترض عليه أن يزيل البدعة ويهين أهلها، فإذا سكت عنها فالسكوت أخو الرضا، فكم أحصى من هدى! ولا يمكن إحصاؤه، والله تعالى أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الباب الثالث عشر

في وظائف الوزارة

الوظيفة الأولى: أن يبتدئ الوزير يومه بالدعاء وقراءة القرآن العظيم، وفي الخبر: «من قرأ كل يوم مائة آية عُصِمَ ذلك اليوم». الثانية: أن يتصدق بشيء وإن كان يسيرا ليكون دافعا لقضاء السوء. الثالثة: نية الخير والعزم على الصلاح فيقول: لعل هذا اليوم آخر أيامي ولا أعيش بعده، فلأختم أعمالي بالخير، وكل ما يحب لنفسه يحب لرعيته، وكل ما يكره لنفسه يكره لرعيته. الرابعة: أن ينتظر مجيء أرباب الحاجات فلا يستخف بهم، فإن قضاء حاجة المسلم خير من سبعين حجة مبرورة، وسبعمائة ركعة نافلة. الخامسة: أن يأخذ في كل أمر بالرفق دون العنف فإنه قادر على العنف، فيأخذ بالرفق ليبين فضله، ويلحقه دعاء النبي ﷺ حيث قال: «اللهم أيما والٍ رفق بأمتي فارفق به، ومن شدد على أمتي فشدد

عليه». السادسة: أن يجتهد حتى يرضى عنه جميع رعيته ليكون خير الوزراء. قال رسول اللّه ﷺ: «خير أئمتكم من تحبونه، وشر أئمتكم من تبغضونه». السابعة: لا يؤثر رضا المخلوق على رضا الخالق، فإن من سخط من قول الحق فهو شيطان. الثامنة: يحكم بالعدل ويأمر به. قال رسول اللّه ﷺ: «من حكم بين اثنين فظلم فلعنة اللّه على الظالمين». التاسعة: أن يحضر العلماء ويجالسهم لينصحوه ويأمروه بالمعروف، ويعرف أحكام اللّه تبارك وتعالى، ولا يخطئ في دين اللّه عز وجل. العاشرة: أن يأخذ على أيدي الظالمين، ولا يمكن أحدا من الظلم فإنه مسئول عن ظلمهم، وفي التوراة: إذا علم السلطان بظلم عماله فرضي به فكأنما فعله، واللّه تعالى أعلم.

الباب الرابع عشر

في مصانعة العمال

قال رسول اللّه ﷺ: «من ولي لنا شيئا فلم يكن له امرأة فليتزوج، ومن لم يكن له مسكن فليتخذ مسكنا، ومن لم يكن له مركب فليتخذ مركبا، ومن لم يكن له خادم فليتخذ خادما، فمن اتخذ سوى ذلك كتب خائنا، وجاء يوم القيامة غالا سارقا».

حكى: أن امرأة من قريش أرادت أن تخاصم غريما لها إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ فأهدت إلى عمر ﷺ فخذ خروف، فتوجه القضاء عليها، فقالت: يا أمير المؤمنين افصل القضاء بيننا كما يفصل فخذ الخروف، فقضى عليها، ثم قال: إياكم والهدايا، وذكر القصة، ورد الهدية.

واستعمل الحجاجُ المغيرةَ بن عبد اللّه على الكوفة، فأهدى إليه رجل سِرَاجًا من شبّه فبلغ خصمه فبعث ببغلة، فلما اجتمع عنده الخصمان جعل يحمل على صاحب السراج، وهو يقول: أمري أضوأ من السراج، قال له: ويلك إن البغلة

رمحت السراج فكسرته.

ولما أتى عمر ﷺ بتاج كسرى جعل يقلبه بعود في يده ويقول: واللّه إن الذي أهدى هذا لأمين، فقال رجل: يا أمير المؤمنين أنت أمين اللّه يؤدون إليك ما أديت إلى اللّه، فإذا رتعت رتعوا، قال: صدقت.

ولما أتى علي - كرم اللّه وجهه - بالمال أقعد بين يديه النقاد والوزان وكَوَّم كومة من ذهب وفضة، وقال: يا حمراء، ويا بيضاء احمرّي وابيضي وغري غيري. وكان عمر ﷺ إذا بعث عاملا اشترط عليه أربعا: لا يركب البَرَاذِين، ولا يلبس الرقيق، ولا يأكل النقي، ولا يتخذ بوابا.

ولما قدم أبو هريرة ﷺ من البحرين قال عمر ﷺ: يا عدو اللّه وعدو كتابه أسرقت مال اللّه تعالى، قال: لست بعدو اللّه ولا عدو كتابه، ولكن عدو من عاداهما لم أسرق من مال اللّه تعالى، قال: فمن أين جمعت لك عشرة آلاف؟ قال: خيلي تناسلت، وسهامي تتابعت، فقبضها منه. وقال أبو هريرة: فلما صليت الصبح استغفرت لأمير المؤمنين، ثم قال لي: ألا تعمل؟ قلت: لا، قال: قد عمل من هو خير منك يوسف، فقلت: نبي ابن نبي، قلت: أخشى خمسا: أن أقول بغير علم، وأحكم بغير حق، وأن يضرب ظهري، ويشتم عرضي، وينزع مالي، فقال: كفى بالمرء خيانة أن يكون أمينا للخونة.

وقال معاوية لعامل: كل قليلا تعمل طويلا، والزم العفاف يلزمك العمل، وإياك والرشا يشتد ظهرك عند الخصام. وقيل لأعرابي: أكلت مال اللّه عز وجل، قال: فمال من آكل؟

ولما قدم معاذ من اليمن، قال له أبو بكر الصديق ﷺ : ارفع حسابك، فقال: حسابان! حساب من اللّه تبارك وتعالى، وحساب منكم، واللّه لا وليت لكم عملا أبدا، واللّه أعلم بالصواب.